حب عن طريق الخطأ

أمـــل الأصيل

ما أجمل أن يأتيك حب دون أن تبحث عنه، دون حتى أن تنتظره.

حدث لي هذا وقد كنتُ في منتصف الأربعينات من عمري، وكنا في منتصف تسعينات هذا القرن؛ لم تكن أشياء مثل الموبايل أو عالَم الانترنت قد اقتحمت حياتنا بعد... في ذلك اليوم الذي لا أنساه أبدًا، جائني ساعي البريد برسالة... مكتوب على الظرف عنوان منزلي واسمي الثنائي (أحمد محمد)، ولا يوجد عنوانًا للراسل... تساءلت وأنا أُقلب ظرف الخطاب بين يديّ: "مَن هذا الذي قد يُرسل لي رسالة وأنا لا يعرف أحد بعد عنواني الجديد هنا؟"؛ كنتُ وقتها قد انتقلتُ إلى ذلك المنزل منذ أقل من شهر... أخذت من ساعي البريد الرسالة، وأغلقت الباب، وجلست بفضول أقرأها.

كانت بداية الرسالة "حبيبي أحمد"؛ كلمتان جعلتا كل حواسي تستيقظ، تُرى مَن هذه التي تحبني وأنا لا أدري؟... كانت كلمات الرسالة تدل على أن صاحبة الرسالة تعرفني جيدًا، حبيبة تتحدث بحُرية لحبيبها... لكن أنا ليس لي حبيبة، أنا حتى لا أعرف مَن تكون هذه... لم أُعطِ اهتمامًا كبيرًا لهذه الرسالة التي هي بالتأكيد لغيري، وجاءتني عن طريق الخطأ... لكنني ظللتُ أنظر لآخر كلمتين بها "حبيبتك هالة"؛ وأنا أتساءل: "أية هالة هذه؟ هالة نور أم هالة حب؟".

بعد أسبوعين جاءتني رسالة أخرى منها، تتحدث فيها بحب، وتلومني على أني لم أرد على رسالتها السابقة... لو أنها تكتب عنوانها على ظرف الخطاب؛ لأرسلت لها أُخبرها بأنني لستُ حبيبها، وبأنها تُرسل رسائلها للعنوان الخطأ.

رسالتها الثانية هذه كانت أجمل من الأولى؛ تقول في آخرها: (اشتريتُ بالأمس فستانًا جديدًا دون أن يكون لديّ سهرة ألبسه فيها... ثم عندما يأستُ من استقبال اتصال جديد منك، جلستُ أستمع لبعض الأغاني العاطفية وأتخيل الحبيب الذي يصلح لكل أغنية وأُفاضل بينهم... ثم وقع اختياري على أغنية نجاة الصغيرة (عيون القلب)... وتخيلتك تُشبه بطل هذه الأغنية؛ طويل، وسيم، كلماتك ساحرة، ولك أحلى ابتسامة، بعيون ضاحكة... وهكذا صنعتُ سهرتي الخاصة، وارتديتُ الفستان الجديد، وجلستُ بمفردي على منضدة خالية من المواعيد).

جعلتني كلمات هذه الرسالة أواصل التفكير في هذه المرأة، وأتمنى لو أن لي حبيبة مثلها... وشغلني هذا الخطأ الذي بسببه تصلني هذه الرسائل، ثم تذكرت أن صاحب هذا المنزل الذي استأجرته منه لمدة خمس سنوات هو أيضًا اسمه "أحمد محمد"... إذًا فهي تُرسل هذه الرسائل له وليس لي أنا... قال لي عند استئجاري لمنزله أنه سيسافر للعمل في دولة عربية ويعود بعد خمس سنوات؛ لكن كيف أنه لم يقل لحبيبته هذه أنه سيسافر؟ وكيف يكون له حبيبه وأنا أعرف أنه متزوج ولديه ولد وبنت؟... رغم كل أسئلتي هذه فأنا أعرف جيدًا أن الزواج لا يمنع من الوقوع في الحب... الأهم من كل هذا هو كيف له أن يترك حبيبته برسائل لا تجد عليها

ردًا؟... عندما استأجرت الشقة منه لم يكن يعنيني أن أعرف لأية دولة سيُسافر، لذا لم أطرح عليه هذا السؤال... والآن أريد أن أعرف حتى أُخبره بأمر هذه الرسائل... سألت حارس المبنى؛ فقال أنه غير متأكد، ربما سافر إلى السعودية أو إلى الكويت؛ حتى لو كان متأكدًا، فأين عساه أن يكون في السعودية أو في الكويت.

كان بإمكاني أن أسأل أخيه عن عنوانه، لكني لم أفعل هذا؛ ربما لرغبة دفينة في نفسي في عدم معرفة عنوانه وإخباره بأمر هذه الرسائل، فكم أُود لو أنها تستمر عمرًا بأكمله، لو أنني أنا هو، ولي حبيبة اسمها هالة، تكتب رسائل بكل هذا السِحر والجَمال.

ظلت رسائلها تأتيني كل اثنين من كل أسبوع... أنتظرها بشوق وكأنها تكتبها لي أنا... عشقت كل كلماتها وكل حكاياتها، تلك التي كانت تفوح برائحتيّ الحب والفقد في آنٍ واحد... وفي رسالتها الخامسة كانت تقول له: (أتدري أنني عندما يأتي المساء؛ أذهب للنوم بعد أن أُعيد ترتيب كل شئ... أُغلق الكتب التي لم نقرأها معًا... أغسل الفناجين التي لم تلمس حوافها شفاهنا... أُعيد حفظ الطعام الذي لم نتذوقه سويًا... وأمسح عن المنضدة بقايا اللقاء الذي لم يكن).

في رسالتها السادسة حكت ما كنت أريد معرفته... كيف تعرفت على شبيهي في الاسم (أحمد محمد)... قالت أنه هو الذي اتصل بها عن طريق الخطأ على هاتف منزلها، وكان أجمل خطأ حدث لها في حياتها، وأجمل حديث دار بينهما... كانت ليلة عيد ميلادها الأربعين، في منتصف سبتمبر، ومنتصف التسعينات، وهي كانت في

منتصف الوحدة... وعندما اجتمعت كل المنتصفات وتوحدت؛ جاء هو.

ثم توالت الأخطاء عن قصد بينهما... كان لا يمر أسبوعًا إلا ويطلبها على الهاتف ويتحدثان بالساعات... لم يُعطها يومًا رقم هاتفه ولم تعرف لماذا (كنت أعرف أنا لماذا؛ حتى لا تقوم بالاتصال به وزوجته في المنزل... هذا الأحمد، يبدو أنه لم يقل لها أنه متزوج)... وأكملت قائلة بأنه أخذ عنوان منزلها وأعطاها عنوان منزله حتى يتبادلان الخطابات إذا استعصى الاتصال... واشترط عليها ألا تكتب عنوانها على ظرف الخطاب عندما تراسله، وهو لن يكتب عنوانه على الظرف عندما يراسلها... (هذا الماكر... كيف لي أن أعرف أنا الآن عنوانها أو هاتفها... وكأنه بدأ تلك العلاقة وتركها لي أنا كي أُكملها؛ لكن كيف، وأنا لا أعرف لها طريقًا)... وهكذا استمرت المحادثات بينهما والرسائل لأكثر من عام.

في رسالتها السابعة كانت غاضبة بشدة من عدم الرد على رسائلها وانقطاع الاتصال بها... وتساءَلت إذا كان قد نسيّ العنوان ورقم الهاتف... (نعم سيدتي ليس لديّ أي عنوان أو رقم هاتف لكِ)... وقالت إنها ستُرسلهما له في الرسالة القادمة إن لم يقم بالاتصال بها (نعم أرسليهما... أرجوكِ أرسليهما).

وانتظرتُ بشوق الرسالة الثامنة التي ستحمل لي أجمل عنوان وأحلى رقم هاتف... وكان ذلك العنوان هو عنوان قدري.

وجاءتني الرسالة بما أريد...

وعلى الفور قمت بالاتصال بها وبادرت بالاعتذار عن تأخر الاتصالات والرسائل... (ما هذا الذي أفعله؟ لكني كنتُ مدفوعًا تجاهها بقوة لا أقدر على إيقافها... فقد أمتعتني رسائلها على مدار شهرين)... قالت لي إن صوتي قد تغير بعض الشيء... (الحمد لله أنه بعض الشيء وليس كثيرًا)... أخبرتها بأني تعرضت لنوبة برد شديدة تركت أثرها على أحبالي الصوتية... يبدو أنني بدأت مسلسل الكذب الذي تعاقبت حلقاته... والجميل أنها صدقتني بسهولة، ولم تذكر موضوع الصوت هذا مرة أخرى... هذه كانت أكبر العقبات وقد تخطيتها بنجاح، وأخذت أُكمل ما بدأه القدر وأُخبرها بأكاذيب أكثر عن سبب انقطاعي عن محادثتها والكتابة إليها، ووجدتها تُصدق كل أكاذيبي.

ظللتُ أحادثها وأرد على رسائلها وقد انتشر حبها في كل كياني، إلى أن جاءتني رسالتها التي قالت لي فيها: (عندما نلتقي... سأحرض على أن أجمع كل ابتسامة لك وكل ضحكة... سأضعها جميعًا في وعاء زجاجي وأُغلقه جيدًا... وكلما طال غيابك، أُخرج إحداها لألطف به حر الأيام التي سيصيبها جفاف بعادك... وأنثر بعضها في الأماكن التي لا يعطر هواءها صوتك)... بمجرد قرائتي لهذه الكلمات قمت على الفور بالاتصال بها وطلبت منها أن نلتقي... فقالت لي إنها تنتظر طلبي هذا منذ أن تحدثت إليها عن طريق الخطأ في الهاتف... نظرت في أعماق قلبي وهي تتحدث معي فوجدتها قد غرست جذور حبها عميقًا هناك، وانتظرت هذا اللقاء حتى أؤكد هذا الحب الجارف أو أنفيه... وجاء اللقاء مؤكدًا لكل ما في قلبي،

ومطالبًا بالمزيد.

كنتُ أُشبه آلة وترية مثل البيانو، قلبي مليء بالأوتار التي تنتظر مَن يُحركها كي تعزف لحن الحب الخالد... ومثلما يحتاج البيانو لأصابع تُحرك مفاتيحه وتبعث الأنغام العذبة من جوفه، كنتُ أحتاج أنا أيضًا لحبيبة تُحرك الحب الراكد في قلبي وتبعث السعادة من داخله... وها هي أخيرًا قد جاءت.

في ذلك الوقت كنتُ في الخامسة والأربعين من عمري، طلقت زوجتي وتركتها هي وابنتي الوحيدة في شقة الزوجية، واستأجرت أنا هذه الشقة التي كنتُ فيها على موعد مع الحب، الحب الذي أخطأ صاحبه وأصابني... وكانت هي في بداية الأربعينات من عمرها، مُطلقة وليس لديها أطفال، وتمتلك الشقة التي تعيش فيها... شقة كما وصفتها لي أجمل وأروع من هذه الشقة التي استأجرتها.

كانت مناسبة لي وكنتُ مناسبًا لها... لكن تبقى نقطة تعارفنا الغريبة هذه؛ هل أصارحها بالحقيقة أم أنه لا داعي، ويكفي ما بيننا من حب؟ واكتفيتُ بما بيننا من حب؛ وتزوجنا وانتقلتُ لأعيش معها في شقتها، ودفعت لأخو صاحب الشقة التي كنت مستأجرها غرامة إنهاء الإيجار وتركت تلك الشقة... يكفيني بأني خرجت منها بحب كبير كهذا.

ومرت علينا أربع سنوات من السعادة والاستقرار، أنجبنا خلالها ولد جميل... لكن الأقدار لا بد وأن تتدخل في مرحلة ما وتكشف أكاذيبي التي كنتُ بارعًا في نسجها.

وجاء هذا اليوم بعد مرور السنوات الأربع بعدة أشهر؛ حيثُ تلقينا اتصالًا هاتفيًا فرددتُ فلم يُجِب أحد... وتكرر الاتصال، وكلما رددتُ أنا لا يجيب أحد... وفي إحدى المرات ردت هي وأجاب الذي على الطرف الآخر... وتغير لون وجهها وهي تسمع ما يقوله، وجلست بجوار الهاتف بلا كلمة واحدة، تسمع ما يقوله وتمتلئ عيونها بالدموع إلى أن انتهى الاتصال، فوضعت سماعة الهاتف ونظرت إليّ قائلة: "إنه شخص يحدثني على أنه أنت... مَن هو ومَن أنت؟".

عاد شبيهي في الاسم من السفر وتحدث إليها، وكشف سري الذي توقعتُ أنه لن ينكشف يومًا... قال لها أنه في اليوم الذي كان سيُخبرها بموعد سفره عرفت زوجته بحكايتهما، وخيرته بين قطع هذه العلاقة في الحال أو أن تتركه؛ ولم يكن لديه الكثر من الاختيارات، فاختار زوجته وأبناءه؛ لكنه لم ينسَها، وبمجرد أن عاد قام بالاتصال بها.

في ذلك اليوم انكسر شيء ما بيننا، ولم يعد هناك مجالًا لإصلاحه... في هدوء طلبت الانفصال؛ حاولت سرد مبررات لما فعلت لكنها لم تقبل أيًا منها... وانفصلنا بهدوء، وتركتُ لها البيت وغادرت، وبقيّ حبها في قلبي مقيم.

واليوم بعد أن أصبح ابننا في السابعة عشر من عمره، أجده يطلب مني أن أُضيف والدته كصديقة على صفحتي في الفيسبوك الذي دخلَته هي حديثًا... أين كان هذا الفيسبوك عندما تعارفنا؟ فربما كنتُ من أول رسالة أُخبرها بأنني لست هو وينتهي الموضوع عند ذلك الحد... كنتُ أُرسل لها طلب صداقة وأنا أتسائل بيني وبين نفسي: "تُرى هل تصلح الصداقة لهذه التي أحببتها عن طريق الخطأ؟ لهذه التي كنت ومازلت أُحبها؟".